٩٩/د/٤٦/ك

الموقف الأدبي

مجلة أدبيّة شهريّة يصدرها اتحاد الكتّاب العرب بدمشق

□ المدير المسؤول: علي عقلة عرسان

□ رئيس التحرير: عدنان بغجاتي

□ أمين التحرير: صميم الشريف

هيئة التحرير

□ أنطون مقدسي □

□ سليمان العيسى □

□ وليد إخلاصي □

□ عبد الله أبو هيف □

الإشراف الفني: زهير الحمو

العددان ١٥٥- ١٥٦ آذار-نيسان ١٩٨٤

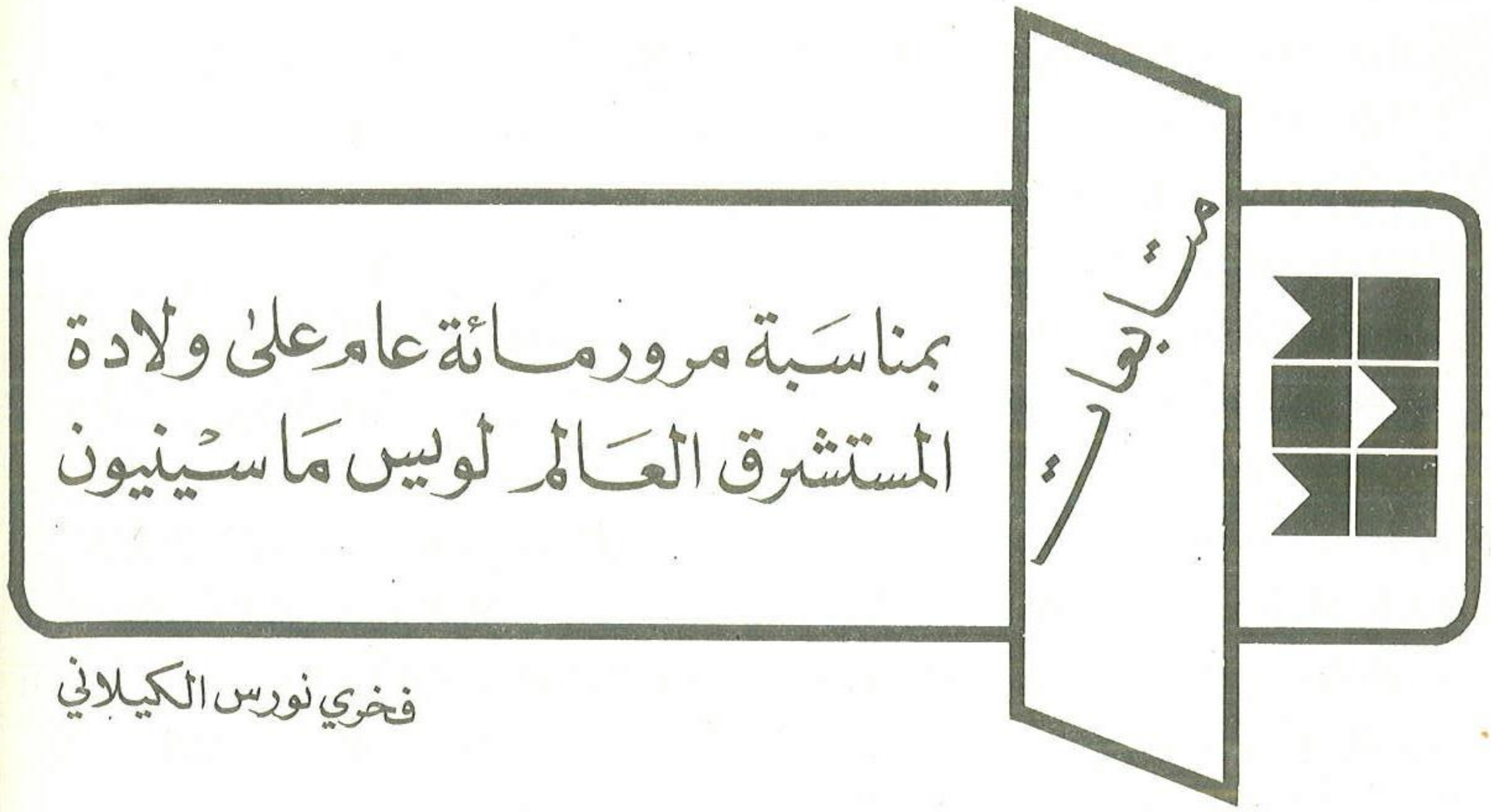

فخري نورس الكيلاني

في الخامس والعشرين من شهر تموز من هذا العام ١٩٨٣ ، مرَّ مائة عام على ولادة المستشرق العالم الفذّ ، لويس فرديناند جول ماسينون .

ولد لويس ماسينون في ضاحية نوجان ، الواقعة على ضفة نهر المارن ، شرقي باريس ، في بيت بني على انقاض القصر الملكي الذي شيدَّه الملك شارل الخامس بين هذه الضاحية وبين غابة فانسيين والذي اصبح بعد ذلك المكان المفضل لأستراحة الملك شارل السابع الذي اهداه بدوره الى محظيته انييس سوريل Agnes Sorel .

تُعدُّ هيئة التدريس في الكوليج دي فرانس ، بالاشتراك مع الأوساط العلمية والادبيه احتفالات شيّقه ، بهذه المناسبة تقديراً لِما كان يتمتع به المستشرق الكبير لويس ماسينون من مكانة علمية ولما قام به من خدمات جليلة لبلاده .

توفي لويس ماسينـــون في ٣١ تشـــرين أول ١٩٦٢ إثـــر نوبـة قلبيـة حادة . وصادفت وفاته ضحية يوم عيد جميع القديسين او مايسمونه بعيد الأموات عند الكاثوليك .

★ ★ ★

ينحدر ماسينون من اسرة ترجع في اصلها الى مقـاطعـة الفيكسـان. Le Vexin وهي الاراضي الافـرنسيـة القـديمة الواقعة بين سهل البراي Lebray وبـين نهر السين ، ويشطرها نهر الأبت L epte الى منطقتـين ، غربيـة ، وتسمى الفيكسـان النـورمـانـديـه ، وشـرقيه ، وتـدعى الفيكسـان الأفـرنسيـة التي تضم مدينة باريس ومـاحـولهـا من مقـاطعات والتي يطلقون عليهـا اسم الجـزيـرة الافـرنسيـة L ile de France . وتمتـاز هذه المنطقـة بطـابعهـا الافـرنسي المحض ، وبـالكثلكـه الصلبـة . وبهذين الطابعين انطبع الشاب لويس منذ صغره وحـافـظ عليهـما طوال حيـاتـه . غير ان هاتـين الصفتـين لم تحوّلا دونـه ودون دراسـة الـدين الاسـلامي والتعمق في اصـوله وفي اصول اللغة العـربية ، بل اتجه في دراساته العلمية الاسلامية إتجـاهـاً خاصاً نحو التصوف والمتصوفين . وبهذه الصفـة يجدر بنـا ان لانـترك منـاسبـة الأحتفـال بمرور مائة سنة على ولادته ، تمر دون ان نشارك بقسط ، ولو ضئيل ، في تكريم فقيد الاستشراق والعلم والأدب .

★ ★ ★

غادرت اسـرة ماسينون المُحافظة ، منطقة الفيكسـان ، موطنهـا الأصـلي عام ١٧٩٣ ، واتخـذت من باريس مستقـراً لها . وكـان والـد المستشـرق فرديـنـانـد ماسينـون نحـاتـاً ورسـاماً بالألوان الزيتيه . وقد اتخذ لنفسه اسماً فنياً هو : « بير روش ». وكانت والدته ، ماري هوفين ، كاثـوليكيـة ورعـه فأنشأت فتـاهـا نشأةً دينيـه وأفـاضت عليـه من المحبـة والعنـاية كل ماتملكه والـدة نحـو ولـدها . ولما بلغ سُن الانتساب الى المدرسة ، أدخله والداه مدرسة « مونتين » حيث انهى المـرحله الاعـداديـة وانتقل منها الى ثانوية « لويس الكبـير » لاكـمال المـرحلة الثـانـوية من دراسته وهي مدرسة فذَّة بين ثانويات فرنسا كلها ومخصصه لاعداد الطلاب لدخول المعاهد العليا .

في سنة ١٩٠٠ حصل ماسينون على شهادة البكالوريا القسم الثاني في الفلسفة ، ثم نال منها شهادة القسم الثاني بالرياضيات في نفس العام وذلك لتمكنه من الناحيتين الادبية والعلمية ويتهم بعض النقاد لويس ماسينون بأن هذه الثانوية ، بالإضافة الى مانشأ عليه من تمسك مذهبي ، قد خلقت في نفسه نزعة طائفية ، أو دينية متعصبة . ونحن لانستطيع ان نجزم بشيء من هذا لاننا نعتقد بأن العلم الصحيح يرتفع فوق الطائفية والعصبيات . ولا نعلم مافي القلوب . ولكن الذي لاشك فيه هو ان ماسينون يُعتبر مُحافظاً ومتمسكاً بجذوره الافرنسية العريقة وبكاثوليكيته الصلبة . غير أن تمسكه بما نشأ وتربى عليه لم يمنعه من الاتجاه نحو الاسلام ونحو اللغة العربية . ولعلَّ اتجاهه الكاثوليكي هو الذي أوحى اليه بمعرفة الاسلام ولغة المسلمين على اعتبار ان فرنسا كانت من الدول المستعمرة ولها صلات بالعالم الاسلامي على نطاق واسع . ومهما يكن من أمر فأن الذي حصل هو ان العالم المستشرق لويس ماسينون ترك أثراً واضحاً في الدراسات الاسلامية ولعلَّه من المستشرقين القلائل الذين دخلوا الميادين الاسلامية من أوسع ابوابها . اذ أنه انتسب سنة ١٩٠٩ الى جامعة الأزهر كتلميذ في الفلسفة وأنتهى امره . في هذه الجامعة ان أصبح مدرساً لمادة تاريخ الفلسفة الاسلامية فيها وألقى أربعين درساً باللغة العربية تحت عنوان : « اصطلاحات الفلاسفة . وأخذ يُعد ، وهو في الازهر ، اطروحته للدكتوراه عن الحلاج وهي من اشهر اعماله العلمية والأدبية وقد نالها عام ١٩٤٢ والشيء الأكيد ايضاً أنه اصبح خبيراً باللغة العربية وبالعلوم الاسلامية لاسيما بعد ان درس اللغة العربية الفصحى واللغة العربية العامية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس ونال منها شهادة بذلك .

انتخب عضواً في المعهد الافرنسي الشرقي للآثار في القاهرة فانفتح امامه مجال البحث والدرس في العلوم المصرية وحصر اهتمامه في بدء احتكاكه بالامور العربية والاسلامية بالفن العربي والفولكلور الشعبي فسجل عنه لمحات ومعلومات متنوعة ومتعددة عن تراثنا الشعبي وتطرق الى موضوع النقابات العمالية والحرفية في سوريا ودرس قوانين وتشريعات هذه النقابات بصورة رسمية وقد وضع هذه الدراسات في تقرير رسمي قدم لبلدية دمشق عام ١٩٢٣ . كما أنه كان قد كُلف من قبل المارشال ليوتي باجراء تنقيب ودراسة عن الحرف وأهلها في الاسلام وعن جذور الحركة النقابية عام ١٩٢٤ في المغرب .

كان ماسينون بحكم تخصصه بالأمور العربية والاسلامية مضطراً الى أخذ الأمور من منابعها . ولذلك فأنه قد شدَّ الرحال الى البلاد

العربية والاسلامية وتنقل في اقطارها للأخذ عن ذوي الفضل من أهلها . وكان من البديهي ايضاً ان يقصد الجزائر عام ١٩٠٧ ، وكانت هذه اول سفرة له في البلد اسلامي وعلى اعتبار انها كانت وقتئذٍ مستعمرة افرنسية وللأفرنسيين فيها سطوة تمنع ان يصاب من يتنقل فيها بأذي في تلك الأيام ، فقد تنقل فيها من بلد الى واحة ثم الى الصحارى . ولكن تلك التنقلات لم تخل من مخاطر وصعاب . ولاسيما وان ذلك كان يتم في قوافل على الخيل أوعلى الجمال ، والأمن لم يكن دائماً موطداً . ولعلَّ زيارته لقصر الأخيصر عام ١٩٠٨ ، الواقع بين كوت العمارة والبصره ، من أجل القيام بمهمة اثرية ، تعتبر من المغامرات . وبالفعل تعرض الاستاذ لويس ماسينون خلالها الى مشاكل مزعجه وكان مهدداً بالقتل اذ احتجزته الشرطة التركية واقتادته الى بغداد . وهنا تدخل اصدقاؤه من آل الآلوسي لدى السلطة فأفرجت عنه . ومن البديهي ان تكون وزارة الخارجية الافرنسية على علم برحلة المستشرق العالم الى البلاد العربية وكانت ولاشك تتابع خطاه . فلما علمت باعتقاله تدخل وزيرها دلكاسه Delcasse لدى الدولة العثمانية لتأمين عودته الى باريس .

ولرغبة المستشرق لويس ماسينون في التوسع بشؤون التصوف عامة ، والصوفي الشهير ، حسن بن منصور الحلاج خاصة قصة لابد لنا من ذكرها كما أوردها هو نفسه في رسالة بعث بها الى والده من القاهرة فقال :

« لقد نصحني الاستاذ غاستون ماسبر و Gaston Maspero ، حينما توجهت الى مصر ، ان أدرس فيها آثارها ، لما لهذه الآثار من قيمة علمية في حياة البشر . ولكنني ، بعد أن اتيت الى مصر ودرست اللغة العربية ، واطلعت على التصوف الاسلامي ، أُخذت بما قرأت عن الصوفي المسلم حسين بن منصور الحلاج الذي قضى نحبه تمسكاً بما تأثر به من عقيدة صوفية لم يدرك معانيها الاَّ هو ، عزمت على ان يكون هذا الصوفي موضوع اطروحتي » .

وبالفعل فقد اطلع ، ونقب وتنقل سنين طويلة ليطلع ويتعمق بكل ماله صلة بالحلاج . ولا بد حينما يذكر التاريخ لويس ماسينون ، من أن يذكر الى جانبه شهيد التصوف حسين بن منصور الحلاج الذي قضى المستشرق قسطاً كبيراً من حياته وهو ينقب في اخباره ويتعمق في درس اسرار تصوفه . فزار الجزائر ومصر وتركيا وافغانستان وايران والعراق وسوريا واجتمع الى نخبة من علمائها . كما إنه اشترك عام ١٩١٢ في مؤتمر المستشرقين المنعقد في اثينا . وقدم مذكرة عن موضوع : انا الحق ، صراخ الحلاج وهو المتعشق للذات الالهيه . هذا الصراخ الذي كان سبب سجنه وتعذيبه وقتله . وكان ماسينون قد قدم اطروحته لنيل شهادة الدكتوراة

وموضوعها : « آلام الحلاج » .

ولم يقف ماسينـون في دراسـاتـه عنـد الحـلاج ، بل تعدَّاه الى عالم من نوع آخر هو أبو العلاء المعري ولما له من آراء فلسفية ، كما درس فلسفة ابن سينا والفارابي وابن العربي . ودرس ايضـاً المتنبي وآفـاق شعـره . غير ان انصبـابـه الـرئيسي كان بلا شك نحـو الحـلاج الذي أُخذ بتصوفه فكتب عنه عدة مؤلفات احدها في ثلاثة مجلدات وهـو خير ماكتب عن الحـلاج كما انـه ترجم ديوانه الى الافرنسية .

★ ★ ★

كان ماسينـون مثـل كل عظـماء العـالم ذا نواح مختلفة وتفكير واسع فهو لم يقف عند دراسة التصـوف بل خاض ميـادين الـترجمـة والسياسة والاجتماع . وبالنظر الى تأثره بالفكرة الاسلامية والعربية فأنه قد ناصر القضايا العربية سياسياً . ومقـالاتـه المجمـوعـه في مؤلف الأوبـرا مينـورا Lopra Minora ، تظهـر كل تنبوأته في عام ١٩٤٦ عن مصـائـب ، يسـببهـا الأرهـاب الصهيوني الذي يسير دون هواده في سبيل تحقيق غزواتـه الامـبر يـاليـة تسـانده في ذلك الاوساط اليهـوديـة في نيـورك بما لديهـا من سطـو ومـال . ومـاسينون اراد ان يكون لبلاده أجواء صداقة في كل البلاد الاسلامية . ولكن الرياح لاتجري كما تشتهي السفن ولكل اجل كتاب .

كان للويس ماسيـنـون ولـدان وبـنت واحده . توفى ولده البكر إيف Yves ، وهو في ريعـان الشبـاب . فحزن عليه حزناً شديداً منذ وفـاتـه عام ١٩٣٥ - ولم يكن قد بلغ العشـرين من عمـره - ولم يلبس إلاَّ الأسـود من اللبـاس مابقي على قيـد الحيـاة - والسـواد رمـز للحـزن الـذي حزَّ في نفسـه وجرح قلبه . ويبدو أن روح ماسـينـون أول ماأثـرت - كما هو طبيعي - في ولـديـه الآخـرين اللذين أنصـرفا انصرافاً علمياً محضـاً مثـل والـديهـما . فتخصصت جونفيف بدراسـة السـلالات والعرق السلتي . وهي التي أتمت ، بعـد وفـاة والـدها ، مع فريق من طلابه واخيهـا دانييـل ، الجزء الرابع من مؤلفه الأخير عن الحـلاج . اذ وضعـوا لهذا المـؤلف فهـارس وتـراجم حيـاة الاشخاص الذين جاء ذكرهم في مؤلف المستشـرق ماسينـون الـذي داهمته الوفاة بعـد أن أنجـز ثلاثـة أجـزاء من مؤلفـه ولم تمهله لاتمام الجزء الرابع .

بعـد أن ارضى ماسينـون رغبتـه الصوفية بدراسـة الحـلاج والكتـابة عنه ، انصرف ، بعد أن أحيـل على المعـاش من الكـوليج دي فرانس عام ١٩٥٤ ، الى النواحي السياسية . وكان قد عُين عام ١٩١٩ استـاذاً في الكـوليج دي فرانس

استاذاً مساعداً للبر وفسور هنري لوشاتليه حتى عام ١٩٢٤ . وفي عام ١٩٢٦ وحتى عام ١٩٥٤ عين استاذاً لعلم الاجتماع الاسلامي فيها . واعتنق مبدأ السياسية السلمية على طريقة صديقه غاندي ، وانتسب الى الجمعية المعروفة باسم جمعية اصدقاء غاندي وترأسها عام ١٩٥٤ . وكان قد اسهم خلال مراحل حياته في عدد كبير من المؤتمرات والجمعيات مما جعل له مدى واسعاً ووزناً كبيراً في مناصرته للقضايا الانسانية العادله وعلى رأسها القضايا العربية .

اجل لقد كان لويس ماسينون مثل صديقه غاندي ، بطلاً من ابطال الأنسبه Lumanisme دون عنف لأنه كان يتمسك بالقيم الاخلاقية والمدنية .

كان ماسينون شخصية جذَّابة فلم يجتمع به أحد إلاَّ احبَّه أو تأثر به مهما كانت ميوله واتجاهاته الشخصية . له صوفية تتمثل بالتواضع والهدوء لذلك قال عنه احد الكتاب الافرنسيين : « إن ماسينون لهب يحرك روح مخاطبه ويؤثر فيه تأثيراً قوياً . »

شارك لويس ماسينون العرب الجزائريين في ثورتهم وحربهم لتحرير الجزائر والمغرب وكل المستعمرات . وكان بحكم كاثوليكيته وآرائه السياسية عدواً للصهيونية وللنزعة المادية . وقد ساعدنا نحن العرب ، كثيراً بمقالاته في الصحف الافرنسية وغيرها وفي المؤتمرات الدولية حيث كان يتمتع بثقل علمي وأدبي وها هو ، لويس اراغون ، الشاعر الروائي الافرنسي الشهير ، الذي اسهم الى أقصى حدود المساهمة في اعمال المقاومة الأفرنسية ضد الألمان ، خلال الحرب العالمية الثانية . يقول عن الاستاذ المستشرق : « إن ماسينون هو أحد الرجال الذين يمثلون فرنسا أفضل تمثيل » . وكان اراغون يَهُم بان يكتب الى ماسينون رسالة ليسترشد برأيه في موضوع قصيدة استرسل في نظمها وهي حول الاسلام . فيقول : « هل من جامع لمعلومات موثوقة واراء صحيحة عن الاسلام اكثر من ماسينون ، يمكن الاسترشاد به ؟ » ويضيف اراغون قائلاً : « لقد كنت على اهبة الكتابة الى ماسينون ليستقبلني وليزودني بما احتاج اليه من معلومات ومعارف ومعان عن الاسلام . ولكن فوجئت بصورة أليمة بخبر وفاته ، قبل ان أكتب اليه ، وأنا أتصفح جريدة ذلك الصباح التي نعته الى العالم العلمي ، بكل اسف ولوعه » .

ومما يدعو الى الارتياح ان ماسينون لم يذهب من هذا العالم إلا بعد ان ترك عدداً كبيراً من الاصدقاء والمعجبين به . ومن اصدقائه السائرين على نهجه العلمي والأدبي ، هو العالم

المستعـرب الفـاضـل جان غوليه الذي عمل وقتاً طويـلاً في البـلاد الاسـلاميـة وخاصة في سورية حيث ترك عدداً كبيراً من التلاميذ والاصدقاء . وهـو اليـوم استـاذ شرف في جامعـة السوربون . يقول جان غوليه انه سار الى جانب ماسينون في عدد من المظـاهـرات المطالبة بتحرير فلسطين كما انـه وقف الى جانبـه في كثـير من المواقف مدافعاً عن حق العرب . ويضيف غوليه أنه يرجو انجاز مؤلف عن لويس ماسينون يبر ز فيه معاني نضاله ودفاعه عن القضايا العادله وعلى رأسها القضايا العـربية التي اعتبرها ماسينون من المبادىء الحقة بكل ماله من وزن علمي مُرجّح .